الموسوعة ان وايتهد نال « وسام الاستحقاق » دون ذكر البلد الذي منحه الوسام . وتقول ان ماك آرثر «عين رئيسا لاحدى المؤسسات ١٩٥٢» دون تسميتها .

تخشى ان يكون بعض كتّاب هذا العمل الضخم ، من ذوي الاسماء اللامعة ، قد اعطوا المواضيع التي عهد اليهم امر التحقيق فيها والكتابة عنها اقل بكثير مما تستحقه من الوقت ومن الجهد ومن التدقيق . وهي ، بالطبع ، ليست المرة الاولى التي يعطي فيها كتّاب عرب كبار ما لا يعتزون به لو كان اسم كل واحد منهم موجودا على المقال الذي وضعه . وليست المكان الوحيد الذي قدم احسن الكتّاب فيه اسوأ ما عندهم . لا بد ان يدرك الباحث العربي ، يوما ما ، ان القارىء اصبح من الوعي بان يفضل احسن ما عند كاتب مجهول على مادة غير دقيقة تحمل اسماء ضخمة في عالم الفكر والادب والبحث .

انيس صايغ

الاسلام تجاه تحدّيات الحياة العصريّة

بقلم حسن صعب . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٥

ما كاد بصري يقع على عنوان ذلك الكتاب الذي اخرجه للناس ، منذ اشهر قلائل ، الصديق الدكتور حسن صعب ، حتى اشفقت على المؤلف وعلى نفسي في وقت معا .

اشفقت على المؤلف لاني ادرك الادراك التام ان امثال هذه الموضوعات التي تمتد طولا الى ما لا نهاية ، وتمتد عرضا الى ما شاء الله ، قد تدفع بالباحث الى مواقف حرجة لا يحسن الخروج منها الا على حساب العمق والدقة .

ان امثال هذه الابحاث لا تمكن الدارس من ان يلم بجميع المواقع ، وان يدرك كل ما في هذه الموضوعات من ابعاد . ومن هنا يعجز العجز كله عن الامتداد عمقا ، وعن استكشاف ما في الاعماق من در وصدف ، وعن اغناء الحياة الفكرية بالجديد من الحقائق او بالحقائق التي قد تقلب الحياة الفكرية رأسا على عقب .

ان امثال هذه الموضوعات لا تغني غناء الابحاث الدقيقة ، المحددة ، الواضحة المعالم ، التي تمكن الباحث من الغوص واستكشاف الحقائق . وهذا اول خلاف يقوم بيني وبين الدكتور حسن صعب في التماس الموضوعات ، ودراستها ، ومحاولة الكشف عما فيها من حقائق ؛ انه يمضي اتساعا – اي طولا وعرضا – وانا امضي عمقا فيما اقدر لنفسي من موضوعات .

لقد اختار الدكتور حسن صعب موضوعا من تلك الموضوعات المترامية الاطراف المختلفة الابعاد . موضوعا يمتد طولا ثلاثة عشر قرنا ، ونصف القرن ، وربع القرن ، ويزيد . ويمتد عرضا الى بلدان كثيرة في المجتمعين الاسيوي والافريقي ، والى بلدان انحسر عنها الاسلام في المجتمع الاوربي – وان تركت في تراثه الثقافي والحضاري آثارا خالدة .

اختار هذا الموضوع الذي تجيش في صدره وبين طياته الآراء والافكار ، والنظريات والمذاهب ، والتراث الثقافي المتعدد الانواع والالوان ، ليجابه به تحديات الحياة المعاصرة . ومن هنا كان اشفاقي على الصديق والزميل .

لست انكر انه المعي ذكي ، ولست انكر انه واسع الاطلاع ، ولكني انكر عليه ان يكون قد اطلع حقا ، وادرك حقا ، كل ما في الاسلام من نظريات ومذاهب ، ومن افكار وآراء – على ما في الشقة من بعد ، وما في المسافة من اتساع – ليجابه بكل ذلك تحديات الحياة المعاصرة ، ويقيمها على اساس من الاسلام .

اني انكر عليه ذلك ، وارى طابع ذلك في الكثير مما كتب .

ولنبدأ بذلك الذي اشار اليه الدكتور صعب

وعاد فاكده في ذلك الحوار الذي نقلته الينا مجلة «الحوادث» البيروتية، والذي قال فيه اجابة عن سؤال وجه اليه: الاسلام هو تعاليم وسلوك – اي فكر وحياة، فاذا شئنا ان نفكر فيه تفكيرا كاملا فان علينا ان نفكر بالجانبين معا – اي ان علينا ان نفكر بما تطالع به الحياة العصرية تعاليم الاسلام الاساسية من تحديات. كما ان علينا ان نفكر فيما تواجه به هذه الحياة المسلمين انفسهم من تحديات. فليس هناك مجال للفصل بين الوجهين – وان كان هناك مجال للتمييز بينهما . . . الخ».

وارى ما لايراه الدكتور حسن صعب في هذا الموقف.

ارى وجوب الفصل بين الوجهين اللذين يشير اليهما – اي بين الاسلام الالهي والاسلام البشري – واراه ضرورة لازمة لا يمكن ادراك التحدي واستبانة موقفنا منه الا على اساس منه.

كما ارى ان عدم الفصل هذا هو الذي اوقع الدكتور حسن صعب في مآزق لم يخرج منها الا على حساب الحقيقة الدينية.

من المسلم به ان الاسلام الالهي تعاليم وردت الينا من السماء، وانها لاتزال القيم الوحيدة التي تحكم حياة الكثيرين منا، وانه على اساس من تلك القيم يجابه المسلمون تحديات هذه الحياة المعاصرة.

ومن المسلم به ايضا ان الاسلام البشري ليس الا الافكار التي نبتت في اذهان المسلمين من جراء تلك التجارب العديدة التي خاضوها في تاريخهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي الطويل – وهي افكار لا يمكن ان تكون بمنزلة تعاليم السماء في نفوسنا وفي القوة التي تمنحنا اياها في مجابهة التحديات.

والفرق بين النوعين، من حيث هذا الاثر، يتبين عندي في ثلاث نقاط:

الاولى، ان اثر تعاليم السماء في مجابهة التحديات المعاصرة اقوى بكثير من اثر تعاليم الفكر البشري. فالتعاليم الاولى تفرض علينا الموقف ولا تترك لنا شيئا من الحرية في الاختيار، وتعد رفضنا اياها او خروجنا عليها زندقة والحادا – بينما الثانية لا تملك هذه القوى، وتتركنا لانفسنا نختار ما فيه مصلحتنا.

الثانية، عدم الفصل بين الوجهين يوهم عند الكثيرين انهما بمنزلة سواء – وهذا هو الذي دفع بالكثيرين من المسلمين الى ان يرفعوا اقوال الاقدمين وبخاصة علماء الكلام واصحاب المذاهب الى منزلة تعاليم السماء. وكان لذلك اثره القوي في تقييد حريتنا وفي عجزنا الذي نراه عن الخلق والابتكار.

الثالثة، ان هذه المنزلة التي احتلتها اقوال الاقدمين قد شكلت مع طول الزمن قيودا كثيرة تضغط على العقل البشري وتحول بينه وبين الحرية والانطلاق. وهذا هو السبب فيما ارى في تخلف المسلمين عن الركب، وفي عجز الفكر الاسلامي عن التحليق في السماء.

ان الفصل بين الوجهين امر ضروري، ولو فصل الدكتور صعب بينهما لجنب نفسه كثيرا من المآزق، ولقدم للاسلام والمسلمين كثيرا من الفوائد.

لو فصل الدكتور صعب بين الوجهين لتبينت له في سهولة ويسر هذه الحقائق التي تحدد في بساطة موقف الانسان المسلم من تحديات هذه الحياة.

لقد فرقت تعاليم السماء بين ما يقبل التغير، وما لا يقبله.

ولقد فرقت هذه التعاليم ايضا – فيما يقبل التغير – بين ما هو من حق الله وما هو من حق الانسان. وبذلك حددت موقفنا من هذه التحديات.

تذهب تعاليم السماء الى ان ما هو من المعتقدات الدينية الخاصة بالله وباليوم الآخر، وبالجزاء على العمل، لا تقبل التغيير – ومن اجل هذا جاء بها جميع الرسل والانبياء – وهذا يجعل موقفنا واضحا، فنحن انما نقيم التحديات على هذا الاساس، فما اتفق معها قبلناه وما اختلف واياها رفضناه.

وتذهب تعاليم السماء ايضا الى ان العبادات، وان التحليل والتحريم الدينيين، مما يقبل التغير – ولكن التغيير فيهما حق من حقوق الله لانه وحده المقصود بالعبادة، وهو الذي اوحى الى الرسل والانبياء بما نال الشعائر الدينية من تغيير في التاريخ الطويل للرسل والانبياء. وهذا ايضا يجعل موقفنا من تحديات الحياة المعاصرة واضحا، فنحن نرفض منها ما ينال هذه النواحي بتغيير او تبديل.

وما تبقى بعد ذلك مما يقبل التغير فامره متروك للانسان ، يقبله او يرفضه على اساس من المصلحة العامة، بشرط ان يتحرى في سبيل تحقيق هذه المصلحة الحق والعدل .

هذا هو الموقف بحذافيره – وتلك هي تعاليم السماء .

مثل آخر اضربه ، ابين فيه كيف توقع هذه الموضوعات المترامية الاطراف الباحث في المآزق الحرجة التي لا يستطيع الخروج منها الا على حساب الحقيقة .

هذا المثل هو ذلك الفصل الذي كتبه الدكتور صعب عن الديمقراطية وكيف انها تجسيم لقيم الاسلام الروحية والخلقية .

لقد كنت احب من الدكتور صعب ان يبين للقارىء اولا مقومات الديمقراطية في الاسلام .ولو فعل لاعطانا الاساس الفكري الذي نجابه به التحديات المعاصرة من دون ان نلجأ الى ما لجأ هو اليه من ابراز لثقافته الخاصة ، ومن دعواه بان الديمقراطية المعاصرة تجسيم لقيم الاسلام الروحية والخلقية .

لقد ذهبت تعاليم السماء الى فرض الديمقراطية، ودعت النبي عليه السلام الى ممارستها ليضرب لمن بعده الامثال ، ثم تركت الباب مفتوحا على مصراعيه ليكيف المسلم ديمقراطيته حسب الزمان والمكان .

وديمقراطية الاسلام لا تدخل ميدان المعتقدات الدينية لانها لا تقبل التغيير بحال من الاحوال ، ولاتدخل ميدان العبادات لانها حق من حقوق الله ، وانما تدخل فقط ميدان هذه الحياة الدنيا بما فيه من قضايا ومعاملات .

ولقد استشار النبي عليه السلام اصحابه ،ونزل في بعض الحروب عند مشورتهم وعاتبه القرآن .

وصعد النبي الى الرفيق الاعلى تاركا للناس امر اختيار من يخلفه، لادراكه عليه السلام ان هذا حق من حقوق الناس .

ورأت تعاليم السماء ان يترك للناس امر ما لم يرد فيه نص قطعي الدلالة ، ولم يكن ذلك عن سهو او عن خطأ او عن اهمال،فحاشاه سبحانه من ذلك، وانما كان ذلك تربية للناس لمباشرة شؤونهم بانفسهم.

ولقد كانت تعاليم الاسلام هي الرافعة للوصاية عن البشر حين جعلت محمدا خاتم الانبياء، فقد كان ذلك ايذانا بحق العقل البشري في تحمل تبعات ومسؤوليات هذه الحياة – وهو حق جماعي في الاسلام .

ان تعاليم السماء قد حددت فيما يخص الميدان الديمقراطي موقفنا من تحديات هذا العصر . فالاساس موجود ، والمضمون قد يتسع ويضيق حسبا للظروف والمناسبات .

ان الدكتور صعب لم يشر من قريب او بعيد الى الاسلام، باعتباره تعاليم الهية ، والى موقفه من الديمقراطية، وعرض علينا فقط قراءاته هو البعيدة كل البعد عن الفكر الاسلامي. ومن هنا كانت تغطيته للموقف بدعواه ان الديمقراطية تجسيم للقيم الروحية والخلقية للاسلام .

وبعد، فمع اختلافي مع الصديق الدكتور حسن صعب في بعض المواقف، احمد له ولوجه هذا الباب ، واحمد له مواقفه النيرة من فصول هذا الكتاب – وبخاصة ذلك الفصل الذي استعرض فيه الموقف بين الاسلام والمسيحية عبر التاريخ .

ولقد كنت احب منه ، واحب له، ان يمضي في كل فصول الكتاب على نسق من هذا الفصل القيم .

محمد احمد خلف الله